مجلة جامعة تشرين للدراسات والبحوث العلمية سلسلة العلوم الإنسانية المجلد 14(العدد 2) 1412 هـ-1992م.

البعد الإنساني - العاطفي لقضية الأرض

في أعمال غسان كنفاني الروائية

إعداد: حسان رشاد الشامـــــــــــي

إشراف: الأستاذ الدكتور : نعيم اليافي

تتناول هذه المقالة دراسة جوهر العلاقة العاطفية الوثيقة التي تربط الانسان الفلسطيني بارضه، وتقف على نماذج متنوعة لعشاق لايملون من عشقهم لأرضهم. وترصد تطور هذه العلاقة، وتضيء أبعادها في روايات غسان كنفاني. تبعا لتطورات الظروف التاريخية والاجتماعية والسياسية التي مر بها نضال الشعب الفلسطيني، وتبين ما أحدثته هذه العلاقة من تغيير في الواقع الفلسطيني، وما تركته من تأثير على مسار القضية بمختلف مراحلها، انطلاقا من موحلة السكون والعجز والعطالة، مرورا بمرحلة النهوض والتمرد، وانتهاء بانطلاقة الثورة وما أعقبها.

الابتعاد عن فلسطين قاتل "والاقتراب منها قاتل... وبين الاقتراب والابتعاد يتأرجح جسمك.. هذه هي المأساة، هذه هي قدرية العشق الفلسطيني" (1)

بهذه الكلمات، يرثي الشاعر محمود درويش الكاتب والمناضل الشهيد غسان كنفاني الذي دفع دمه ضريبة عشقه للأرض وللقضية. فكيف عبر عن هذا العشق في رواياته؟ وكيف تجلت فيها عاطفة الفلسطيني نحو أرضه، فردوسه المفقود؟

تشكل قضية الأرض عند كنفاني مدخلا حيويا لمعظم رواياته..انها تعويذته و لازمته وهاجسه، وقوة السر التي تبث الحياة في أوصال أعماله الروائية، فتجعل كل ما فيها من أحداث وشخصيات وزمان.. يدور حول القضية، وفي فلكها.

ففي "رجال في الشمس" يفتتح غسان كنفاني روايته بهذه الصورة المعبرة والموحية التي تحمل قيمة فنية وحياتية رفيعة: *"أراح أبو قيس صدره فوق التراب الندي، فبدأت الأرض تخفق من تحته. ضربات قلب متعب تطوف في ذرات الرمل مرتجة. ثم تعبر الى خلاياه، كلما تنفس راحة الأرض. وهو مستلق فوقها ، خيل اليه أنه يتنسم شعر زوجه حين تخرج من الحمام، وقد اغتسلت بالماء البارد..الراحة اياها، راحة امرأة اغتسلت بالماء البارد، وفرشت شعرها فوق وجهها، وهو لم يزل رطبا.. الخفقان ذاته:*

كأنك تحمل بين كفيك الحانيتين عصفورا صغيرا.." (2)

هناك، اذا هموم تعشعش في نفس أبي قيس -الفلاح الفلسطيني- وتعصف بقلبه، ولايرى سوى التراب الندي (الأرض) متنفسا له، يبحث في ذراته عن ذاك الارتياح المفقود، وذلك الشعور بالأمن والطمأنينة، فتتجاوب الأرض لوجيب قلبه وتخفق من تحته، فيرتد هذا الخفقان الى خلايا أبي قيس نفسه.

فالأرض هي مستودع الأسرار والهموم والعواطف، وهي المصدر الرحب الذي ينبض بالحب والحنان بشكل دائم، ويبعث في النفس شعورا بالدفء والألفة. فها هو "ابو قيس" يخرج من مكان الرجل السمين (المهرب)، وعلى كتفه هم آخر جديد، بل ذل آخر جديد، وفي صدره أنين مسموع، وحس عارم بالاختناق، يحس *"أن رأسه كله قد امتلأ بالدمع"* (3) عندئذ يرتمي *"ملقيا صدره فوق التراب الندي الذي أخذ يخفق تحته من جديد.. فيما انسابت راحة الأرض الى أنفه، وانصبت في شرايينه كالطوفان"* (4).

انه يعاني حالة من التمزق والاضطراب، بين الاقتراب من الارض روحيا، والابتعاد عنها جسديا، مترجحا بين الركون السلبي الى حالة الانسحاق التي عاشها في مخيم البؤس واللجوء، وبين الفرار السلبي -أيضا- بعيدا عن الأرض -

أرض الوطن- بحثا عن الخلاص الوهمي، حيث ينتظره الموت الذي كان يستشعره بحدسه، ولاشيء سواه. وهو حين اختار الحل الثاني، فان قلبه لم يتوقف عن الخفقان بحب أرضه، فسلبية موقفه لاتلغي حميمية عاطفته تجاهها، وتوقه الشديد للعيش في أحضانها.

لقد وقفت علاقته بأرضه عند تخوم أبعاد عاطفية ثلاثة،(5) هي:

1 - البعد العاطفي الحياتي: تجلى في مشاركة الخفقان (الحياتي والدموي)، فالأرض بالنسبة للفلاح الفلسطيني، هي نسغ الحياة الذي يغذيه سرا وباستمرار، ويمده بالطاقة اللازمة لمواصلة الحياة. يفرغ في ذرات ترابها شحنات الهم والقلق والعذاب، ليستعيض عنها بخفقة الحب، ودفء الحياة. فيشعر بالراحة والسكينة.

2 - البعد الجنسي العاطفي: نلمسه في تعبيره عن المشاعر والأحاسيس التي تثيرها فيه رائحة الأرض، "رائحة امرأة اغتسلت بالماء البارد" حيث استطاع غسان أن يصور بدقة الشوق العارم لبطله، الى أنفاس المرأة، الزوج، ناحتا بذلك صورة الانسان فيه.

3 - البعد الوجداني العاطفي: ويتجلى هذا البعد حين تغدو علاقة "أبي قيس" بالأرض على درجة رفيعة من الحنان والرقة والوداعة: "كأنك تحمل بين كفيك الحانيتين عصفورا صغيرا" ، واذا بهذه العلاقة الكلية بينهما تعلن على أنها علاقة حياتية - جنسية- وجدانية أساسا"(6)، وهنا يصبح الابتعاد عن الأرض التي تمثل له كل ما هو نبيل ونظيف وطاهر "تهديدا بالخيانة والعجز والموت، وكلما كان الابتعاد أقوى -ملامسة ورائحة- كان التهديد أشد، وبالتالي تصبح أقوى النتائج متوقعة"(7).

لقد ربط كنفاني ربطا محكما بين حب الفلاح للأرض، وحبه ووفائه للمرأة- الزوج، ليجعل منهما قضية الحب الأولى والأخيرة التي لايمكن أن تنفصم عراها بين الفلاح والأرض والمرأة- الزوج.

وتميزت تلك العلاقة بخصوصية شديدة، كما بدا ذلك واضحا لدى "أبي قيس"، فهو، وان ابتعد عنها مكانيا، الا أنه بقي وفيا لها. يحملها في قلبه وعقله أنى توجه. ويبقي الحلم بشجرات الزيتون هاجسا لايفارقه. حتى في أحلك الظروف، وأقساها، حين كان يسير على السراط متجها الى الجحيم، *سوف يكون بوسعنا أن نعلّم قيسا، وأن نشتري عرق زيتون او عرقين*" (8).

فالفلسطيني لايتعب من عشقه لأرضه، ولايتوقف عن ممارسة عملية العشق حتى يتوقف قلبه عن الخفقان .. ويتجمد الدم في عروقه، على الرغم من

الخطأ الفادح الذي ارتكبه، حين سار في الاتجاه المعاكس لأرضه ووطنه. وقد يشفع له أنه كان رهين قيوده الوضعية التي فرضت عليه، وشلت حركته، لذا لم يكن لديه أي شعور بضرورة الثورة على الواقع، أو بارادة الثورة، فالوعي لديه - آنذاك - كان في حالة ثبات عميق.. وهو يتخبط في مستنقع الجهل والتخلف والأنظمة المتاجرة، والقيادات المصابة بالعجز، فظلت عاطفته نحو أرضه متوارية خلف سياج القلب، منكفئة في ثنيات النفس، مكبلة داخل نطاق ضيق من الانفعالات والمشاعر، من غير أن تترجم الى حركة فعل صيروري سوي، ومن ثم كانت النهاية المحتومة هي الموت الذليل، فوق أكوام القمامة، بعيدا عن عيون الوطن، بعيدا عن دفنه وحنوه.

ولئن انحصرت ممارسة العشق في "رجال في الشمس" في بوتقة العتمة والضياع والخوف والركود، وانتهت الى مهزلة الموت العبثي، فإن عملية العشق في "ما تبقى لكم" قد حولت البطل من حالة الشلل التام الى حالة القدرة. من حالة الحصار، حصار الماضي الكئيب الى حالة التمرد والانعتاق ذلك لأنها "رواية الظروف الموضوعية التي تخلق ارادة...وان تكن ...ذات أبعاد فردية، فلم يكن للارادة يد في خلق الظروف، بل كانت اليد للظروف في خلق الارادة.. ولم يكن الفكر الفلسطيني هو الذي وعى وعبأ وخطط.. بل ترك الأمر للظروف، تفعل فعلها. فلولا الظروف هذه لكانت.. الخمس عشرة سنة التي مضت على الاحتلال قادرة على ترسيخ صوت الصمت والسكون والموت.. ولكن الظروف تغيرت بفعل المواجهات اليومية على أرض الاحتلال.. تغيرت عما كانت في السنوات العشر الأولى"(9) فأيقظت في الانسان الفلسطيني احساسه بكينونته المغربة النائمة، وعززت فيه روح التفاؤل والثقة بالغد، ولم يعد الانسان الخائف المتردد الهارب بعيدا عن أرضه، بحثا عن الحد الأدنى من متطلبات الحياة اليومية له ولأسرته، بل أصبح ذلك الانسان الذي نفض عنه غبار التقاعس والخنوع، وبدأ يتحلى بالارادة الطيبة، والعزيمة الصلبة، والاصرار على المواجهة.

وهاهو "حامد" يبدأ رحلة البحث عن الخلاص الحقيقي، متجها نحو أمه الأرض . ومنذ اللحظة الأولى التي بدات فيها خطواته تدق في صدر الصحراء، بدأت مخاوفه تتلاشى شيئا فشيئا، كلما أمعن الدخول الى جوفها. ولم يعد الليل ذلك الشيء الذي يحمل معه المشاعر الوحشة والخوف والتوجس، بقدر ما يحمل معه الشعور بالأمن والطمأنينة، والثقة بالنفس وبالمستقبل: *"فجأة ذاب الخوف وسقط"* (10). ليس ذلك فحسب، بل ان أحاسيس مفعمة بالدفء والألفة بدأت تنتابه، وهو مستلق فوق الأرض -رمال الصحراء- فيحس بها

تحته ترتعش كعذراء (11).

هنا تتجسد تلك العلاقة العاطفية الحميمة التي تربط الفلسطيني -حامد- بارضه، من خلال شعوره بالطهر والنقاء والبراءة، واحساسه العميق بالدفء والحنان والصبوة المنشودة، وهو يحتضن الارض التي اصبحت بديلا عن دنس الواقع، المتمثل في:
دنس أخته مريم من جهة، وذل المخيم وعاره من جهة ثانية، وخيانة زكريا له ولرفاقه من جهة ثالثة.

لقد جعل كنفاني بطله، يرى في الارض فتاة عذراء، ولم ير فيها الزوج أو الام او الاخت. وباعث تلك الرؤية، هو أنه انسان لم تربطه بالأرض اية صلة مادية من قبل.. فهو لم يكن فلاحا. ولم يسبق له أن تعامل مع الارض. أي أنه لم يكن ذا صلة وشيجة. وألفة بالأرض وأشيائها، تلك الصلة التي لمسناها لدى أبي قيس. وجعلته يحس برائحة الارض الندية، وكأنها رائحة شعر زوجه، وقد اغتسلت بالماء البارد. اضافة الى أنه كان يسعى نحو الطهر والبراءة والطراوة، تلك المعاني التي افتقدها في واقعه (حاضره).

من هنا جاءت صورة الفتاة العذراء لتجسد له كل هذه المعاني والمشاعر. لأن عهده بالأرض، ومواجهتها والارتطام بها كان بكرا. فلم يسبق له أن توغل في الصحراء -أرض الوطن- ولذا كان من الطبيعي أن ينعكس هذا الارتطام البكر في صورة فتاة عذراء، لم تسبق له معرفتها. لما توحيه هذه الصورة من مشاعر الرهبة المشغوفة بالحب والشغف، الممتلئة بالطهر والنقاء والصدق..

وهو اذ يتجاوز حاجز الخوف والرهبة، من اللقاء الاول بها، يلوذ بها أكثر ليستمد منها الحماية والأمن والشجاعة، بعد أن استشرف الخطر، من جراء تعرضه لضوء دورية اسرائيلية. *وفجأة تعالى الهدير، وصارت السيارة امامه تماما. فغرس أصابعه في لحم الأرض، وذاق حرارته تسيل الى جسده، وبدا له أنها تتنفس في وجهه، فلفح لهاثها المستثار وجنتيه، وشد اليها فمه وأنفه. فاشتد الوجيب الغامض فيما استدارت السيارة فجاة، فالتمع الضوء الاحمر في مؤخرتها وأخذ يذوب في الليل.. اراح وجنتيه فوق صدرها الدافيء، مرة أخرى، فيما أخذت تسمع بارد تغسله... ومرر شفتيه فوق التراب الدافيء (12)*

في هذه اللوحة الشاعرية، يصور كنفاني تلك المشاعر المتدفقة التي يكنها الفلسطيني للأرض، وذلك الاستغراق العجيب بينه وبينها. انه أشبه بعملية عشق بين محبين طال الفراق بينهما، وعز الوصال. انه تشبث بالطهر اللائق بجيل التحرير بالدفء النابض بالحياة، بل ان هذا التشبث يستطيل، ويمتد الى أن يتحول الى التحام

وامتزاج عضوي بين الفلسطيني وأرضه. فحين احتضنت الأرض حامداً، كما احتضنها هو بدوره، *"نبضت العروق.. وتوحدت النبضات، ولسعته الرمال، وانتفضت فيه انسانيته المفقودة.. وقامت حالة من العشق عجيبة بينه وبين هذه الرمال، رمز الأرض والوطن والحب ! فتحول من حالة العجز الى حالة القدرة، وكانت المواجهة التي نفضت الخوف بعيداً بعيداً"*(13).

ولم يكن ليتم ذلك لولا التحول الذي طرأ على حامد أثناء توغله في الصحراء وحيدا. وقد تجسد هذا التحول حين صحح مساره، واتجه نحو أرضه، عندها فقط غدا أكثر اطمئنانا وثقة وقدرة على المواجهة. فمن الأرض يستمد الانسان الفلسطيني أصالته وتحديه وثباته في مواقفه، ذلك الثبات الذي اقترنت صورته لدى كنفاني بصورة جذع شجرة راسخة، ضاربة جذورها في رحم الأرض(*). ومن مثالها – الأرض – يستمد حدسه ويقينه: *"وعرفت ، كما تعرف الأرض أن عشبة ما ستنمو هنا، أنني سأذهب"* (14)، ومن الأرض – أيضا – يستمد الفلسطيني نسغ الحياة النضرة اليانعة، وذلك العنفوان والصمود *"كل أنصال الفولاذ في العالم ليس بمقدورها أن تحصد من فوقك عرقا واحدا.. ولكنها تتكسر واحدا وراء الآخر، أمام حصانك الصلب النامي أكثر فأكثر، كلما خطا الرجل الى أعماقك خطوة وراء الأخرى، حتى ليتحول هو ذاته الى عرق مجهول مشرش، يستقي منك انتصابه وخطواته"* (15).

لقد تجسد كل هذا الحب والتعاطف والتلاحم القائم بين الفلسطيني (حامد) والأرض في ذلك التحول الكبير في الموقف الذي تمثل على أرض الواقع، في جهة مواجهة حامد للجندي الصهيوني. تلك المواجهة التي كان لها الدور الكبير والفعال في تلاشي صقيع الخوف والمنفى –داخل الوطن– واذا بالعدو يبدو *"خيالا قاتما لتمثال حجري دبت فيه روح شبحية"* (16).

هكذا أفرزت عملية عشق الأرض في "ماتبقى لكم" بنور المواجهة والتحدي حين استطاع الفلسطيني أن يرصد خطواته، ويحدد اتجاهه الصحيح، ولكنه حين أخطأ الاتجاه، وأغرق في الابتعاد عن أرضه ووطنه –رجال في الشمس– فان عشقه لأرضه المحمولة في ذاكرته بقي في دائرة الحلم، أسير زمنه الساكن المتاسن، ولم يقترن هذا العشق بالوصال الحقيقي، ولذا لم يثمر الا الضياع والاختناق والموت في جحيم الخزان.

وتطالعنا في رواية "العاشق" صورة أخرى لعشق الفلسطيني للأرض كما أرادها كنفاني، وفيها يقبل على العاطفة اقبالا شديدا "لأنه كان يبدأ بالكرامة الانسانية والوطنية، لابالشروط التي تصوغ كرامة محددة"(17).

صورة الأرض التي يقدمها كنفاني في روايته هي مزيج من الفناء والاستغفار والحلم والتعويض.."العاشق" أغنية تربوية،

وترنيم ديني، وحوار شعري مع زمن لن يعود، وتكريم للأجداد الذين قضوا دفاعا عن الأرض"[18].

نقرأ في هذه الملحمة -الرواية، *"اللحظة المناسبة التي ولد فيها قاسم من جديد بعد غياب طويل..كالمد عاد فجأة، فلذا به يملأ الجرود مرة أخرى، من الجرمق الى ترشيحا، الى جدين، الى عكا. طار الغبار عن خيوط غير مرئية، وربطها الناس باعتناء شبكة من الأساطير، كانت مجرد أحداث لايكترث بها أحد"* [19].

مثل أبطال الملاحم يظل متميزا، مدهشا وغريبا.. وكأنه أسطورة، اذ يمشي على النار بقدميه الحافيتين بهدوء وثبات، وكأنه يمشي على عشب، فتثير الناس بمشيته الثابتة. تلك فوق الجمر المشتعل، مثلما تثيرهم أكوام القماش المتسخ الملفوف حول قدميه "انه أمر لايحدث الا مع عاشق. هكذا يقولون: *لكنه لم يكن الا عاشقا من نوع غريب..ليس عشقا لامرأة، وانما لقضية"* [20].

يختلف عن الناس في علاقته مع الأشياء، فيتجلى في الطبيعة وأشيائها بقدر ما تتجلى فيه. انه جزء من العالم المحيط به، يقيم حوارا غنائيا مع الأرض والخيل والريح وغبش الصباح، فهي منه، وهو منها، وفي علاقته بالخيل الأصيلة وبالطبيعة "صورة لوحدة العالم الغنائي، اذ يكون للخيل اسم ودموع، ولوعة، وللشجر تنهد، وللسهل ذراعان تحسنان الترحيب، وتلويح الفراق"[21] اذ نقرأ.. *"وأخذت سمرا تصهل صهيلا ممطوطا كأنه النواح"* [22]..*"وبدأت شتلات التبغ حولي تتقصف واحدة وراء الأخرى، وتسقط في صدري، فأسمع تقوضها كالعويل"* [23].

لقد ربطته بالأرض وأشيائها، وبالخيل علاقة صحيحية، عاطفية، نضالية راسخة، وصلت حد التوحد والاندماج، حيث أصبحت الخيل *"كيانا متعاطفا مع الصديق، تحزن وتنوح لمصابه، وفي هروبه، وتقمصه لاسم آخر، يتوسل الجياد مرة أخرى، فتكون جديرة بحفظ السر"* [24]. *"وسميت نفسي "قاسم" وكانت ريح أول من عرف، ومضينا طوال الليل نسير ونقف، ونغفو قليلا، ونتحادث بصوت خفيض، ونبحث عما يتعين علينا أن نفعل"* [25].

هكذا تبدو الطبيعة -الأرض وأشياؤها- في عالم "العاشق" شريكا للبطل، وظهيرا ونصيرا له. البطل الذي هو روح الأرض، حيث تصل العلاقة بينهما الى درجة الاندماج والتوحد الكلي، *"ينتفي عبد الكريم، العاشق، عن اسمه، ينكر ذاته القويمة، ليتقمص اسما وشخصا آخر كل مرة، لكن هذا الانكار يظل في سبيل الأرض التي لا ينكرها. يهرب من رقعة الى رقعة، ولكنه يظل فوق الأرض التي يعشق، والمتوحد فيها حتى العظم والنخاع، متنقلا فيها، منها، واليها، تحتويه بتواطئها الحنون معه،*

وتحلب عليه. كل الأشياء تبدو قابلة للانفصال عنها، اسمه وماضيه وشخصه. الا الأرض القادرة على منحه تجدد الفعل الدائم، يظل الانفصال عنها غير ممكن" (26).

وقد أدرك هذا التوحد، بل هذا التواطؤ عدوه، الكابتن بلاك الذي يقول: *"كنت أقول لنفسي، وأنا عائد مع الخيبة والمرارة والتعب، ان الأرض ذاتها هي المتواطئة والشريكة، وانك كي تقبض على عبد الكريم عليك أولا أن تلقي القبض على الأرض"* (27).

والعاشق كما أرادها غسان، نشيد يمجد الفلاح الفلسطيني الذي خاض معركة في سبيل الأرض، وبذل من أجلها ما يملك. أغنية تعيد الاعتبار الى بطل وطني منسي، أوشبه منسي. انه المناضل الذي أنجبته الظروف التاريخية، وجعلت منه بطلا حقيقيا يختزل في نفسه بطولة شعب، يدل على ذلك تعدد اسمائه، فهو يجسد المجموع في الفرد، تماما مثلما تجسد "أم سعد" بطولة الجماهير الشعبية الكادحة، ومعاناتها، وأحلامها، وتضحياتها. تلك الرواية "أم سعد" التي جاءت نتاج *"فوران لحظة تاريخية فلسطينية، بلغ فيها الكفاح المسلح ذروة من ذرا مجده، وحقق فيها الانسان الفلسطيني الكادح أساطير عطاء غير محلوم بها"* (28)، وتحول اذ ذاك العشق الفردي للأرض وللوطن، الى عشق جماعي، بعد مراحل متتالية من التوعية والتعبئة والتخطيط والتحول.

أم سعد هي نموذج للشعب الفلسطيني، للأم الفلسطينية التي تحمل بين جوانحها هموم الوطن وآماله. هي الأم التي تتوحد مع الأرض ورجالها، وتسهم في تحقيق تطلعات الرجال المناضلين الشرفاء. *"حين تدق باب البيت، وتضع أشياءها الفقيرة في المدخل، تفوح في نفسي رائحة المخيمات بنعاستها وصمودها العريق، وبؤسها وآمالها. ترتد الى لساني غصة المرارة التي علكتها حتى الدوار، سنة وراء سنة"* (29).

عشقها للأرض جعلها تتوحد مع المخيم والشارع والوطن والفلاحة اللبنانية المسحوقة مثلها، جعلها تصبر وتعتاد هذه الحياة الشاقة التي فرضتها عليها ظروف النكبة، أو بالأحرى جعلها تقاتل هذا الواقع اللاانساني الذي تعيشه. فتتصدى للمختار، رمز العمالة والتواطؤ، *"وترفع القطع المعدنية الحادة التي ألقت بها الطائرات الاسرائيلية في طريق مطار بيروت، وتواجه بطش الطبيعة التي تفتك بالضعفاء -أبناء المخيم-، انها تتحسس قضايا شعبها وهمومه"* (30) وتحمل معه أعباء الحياة بعزيمة لاتلين، يحدوها التفاؤل بالمستقبل الذي بدأت ملامحه تلوح في الأفق.

لم تصدمها الهزيمة، بل تماسكت، وعلت عليها من الداخل، واذا بها تعلن بكل بساطة وعفوية الأم الثورية *"أن الحرب بدأت*

بالراديو، وانتهت بالراديو" (31) وكان ردها على ذلك بأن حملت عرقا جافا من دالية، وزرعته، ليعشق في النهاية التراب *برأسه الأخضر.. ويغنوان له صوت"* (32)، وبذلك يؤكد كنفاني -ومن خلال أم سعد- ان الموت لابد أن تعقبه حياة، وأن الهزيمة لابد أن يتبعها نصر. ولذا فقد لجأ الى الصورة المكثفة الدالة، ليعبر عن رؤيته الأيديولوجية. فكان عرق الدالية بما يحمله من دلالات رمزية خير وسيلة لبلوغ غايته. فالدالية *"رمز النماء والامتداد الأخضر الذي يتماهى مع نماء الواقع الفلسطيني الجديد، والطاقة الفلسطينية التي انبعثت من جفاف التاريخ، فانطلقت قوة متفتحة، قادرة على العطاء، وضاربة جذورها في رحم الأرض لتستمد منها قوتها"* (33).

لقد أثمر حبها وعشقها لفلسطين، مواقف وتحولات متعددة، تنضح بالطيبة والعفوية والتضحية والكبرياء والصمود والرجولة، فها هي تتمنى ألا تموت قبل أن تكتحل عيناها برؤية ارضها، وقد تحررت، فتموت قريرة العين. وقد احتضنت جسدها تربة الوطن *"أريد ان أعيش حتى أراها، لأريد أن أموت هنا في الوحل ووسخ المطابخ"* (34). فهي لاتريد ان تموت غريبة في المنفى، في مخيم اللجوء، حيث الذل والهوان يتجسدان في أعنف الصور وأكثرها مأساوية.

لقد بلغ عشقها للأرض درجة الايمان بتقديم أبنائها وقودا للثورة، *"هذه المرأة تلد الأولاد فيصيرون فدائيين، هي تخلف وفلسطين تأخذ!"* (35). وتقول: *"اذا لم يذهب سعد، فمن سيذهب؟"* (36).

إن معاناتها الثورية المنبثقة عن عشقها لفلسطين، انما هي جزء من *"رمزيتها (الأم - الأرض)، فيما تنذر نفسها لخدمة أبنائها، لا ترتاع اذا نذر أبناؤها أنفسهم من اجل فلسطين. فعلاقة الأمومة تجيرها الى فلسطين"* (37).

فها هو "سعد" يحاصر مع رفاقه من قبل العدو، اثر توغلهم داخل الأرض المحتلة، ويشتد عليهم الحصار وينهكهم الجوع، وقتها تتجه امرأة ريفية فلسطينية صوبهم، فيقول سعد: "هاقد جاءت أمي".. ويقترب منها أكثر، حتى اذا ماتيقنت من حقيقته، احتضنته، وجاءت له ولرفاقه بالأكل، وظلت تطعمهم خمسة أيام الى أن انفك الحصار، فأخبرتهم بذهاب الجنود..

تكتسب هذه اللوحة شاعريتها وحيويتها من اصرار سعد على أن هذه المرأة أمه *"وهي فعلا أمه، لأن كلتا المرأتين واحد في الجوهر والمعنى"* (38). وحين يعود سعد الى أمه يخبرها بالحادثة، فيقول لها: انه يراها هناك دائما.

ومن هنا، فان نداءه *"لهذه المرأة التي أطعمته ليس حادثة منفردة، فهو دائما يرى أمه داخل فلسطين، لأن أم سعد، موجودة داخل فلسطين وفي المنفى"* (39).

وحين تقص للراوي ما حكاه ابنها، ثم تستدير لتخرج، يجد الراوي نفسه يناديها فجأة "يايما"، *"وهكذا تكتمل الدائرة، فأم سعد هي أم الجميع.. أم الفدائي الذي شب على أرض المنفى، وهي أيضا الأم الروحية للمثقف الثوري الذي يريد أن يكون ابنا بارا لفلسطين الثورة، ولفلسطين الكادحين"* (40).

ولا نريد أن ننسى دور سعد الفدائي الذي كان امتداداً لأمه، وممثلا لجيل المنفى. ان حبه للأرض، لفلسطين -التي لم يولد فيها- جعله ينذر روحه لها.

ولوجه فلسطين الا تعبيرا عن هذا الحب والحنين الذي يكنه *"للأرض، للأم لحياة انسانية ليس فيها ارهاب، لحنان لا يجود به الا عالم المعقول"* (41).

فلسطين هي الحقيقة والواقع في أدب غسان، بل هي الحقيقة كلها، منها يستمد أصالته وحيويته ومادته وعناصره الفنية في رسم ملامح الكثير من شخصياته. بمعنى آخر، هي العنصر الذي يمثل خلفية الصورة الفنية في أعماله الروائية. فأم سعد امتزجت ملامحها بالأرض: *"جبينها الذي له لون التراب"* (42)، شعرها المتيل *"كأنه تراب مسقي"* (43)، أما دموعها فتجيء *"مثلما تتفجر الأرض بالنبع المنتظر منذ أول الأبد"* (44)، فدموعها ليست دموع الكسيح العاجز، ولا الذليل الخائف. وانما هي دموع الاباء والتضحية التي تبشر بالعطاء الوافر، وبالحياة الخصبة الثرة التي تنتظرها الجماهير الكادحة. انما ثمرة الحقد الذي يبني، والغضب الذي يصنع مدرسة ومقاومة وثورة. وباختصار شديد، بكاؤها (دموعها)، هو البكاء الذي يبشر بزلزال. حين تمضي "أم سعد" الليل كله في المخيم، غارقة في الوحل والماء، وقد تدلى شريط الوحل على ثوبها، يراه الراوي *"شيئا يشبه تاج الشوك"* (45). ففي هذه الصورة الرمزية المكثفة، اشارة واضحة الى عذاب السيد المسيح، وتضحياته من أجل خلاص شعبه، وخلاص الانسانية من خطاياها، ومن الظلم والبؤس.. وهاهي "أم سعد" كالمسيح تكابد العذاب والشقاء والألم، لحظة اثر لحظة، من أجل خلاص شعبها، وهذا لايتحقق الا بالممارسة النضالية على جميع المستويات.

"ان الذين عذبوا المسيح، هم الذين يعذبون الشعب الفلسطيني، بالنفي خارج الحدود، والاضطهاد داخل الحدود. وكما أن المسيح قدم نفسه قربانا لغسل خطايا الانسانية، فيبدو أن الشعب الفلسطيني الذي لم يكن له جريرة في المظالم التي حلت بيهود العالم، هو قربان هذا العصر" (46).

كنفاني -اذا- ككل الأدباء الفلسطينيين، لا يفهم السيد المسيح *"فهما لاهوتيا يرتكز الى فلسفة العبادة والجدل، ولكنه يفهمه فهما نضاليا مرتبطا بقضية"* (47).

لقد مثل كنفاني في "أم سعد" الجيل الغاضب، المتمرد، الثائر. الجيل الذي لم

يستكن للتحدي، بل استجاب له بعنف وبطولة، فكانت أم سعد الرمز الذي استوعب هذا الجيل، وكل آماله وطموحاته الكبيرة. بل استوعب الشعب الفلسطيني كله. والشعوب الباحثة عن الخلاص من كل أشكال القهر والظلم والاستغلال.. وكل ما يتنافى مع انسانية الانسان.

"أم سعد" هي الحقيقة والمجاز، "هي *حقيقة واقعية حتى تشم رائحة فلسطين في صرتها -هويتها الفلسطينية- واثوابها. وهي مجاز لزمن فلسطيني ناهض. وهي ليست مجازا للمرأة الفلسطينية، والأم الفلسطينية فحسب، بل هي مجاز لأمومة فلسطين ذاتها. تتكشف هذه الأمومة عن كل القيم الأخلاقية والروحية لأبنائها: الطيبة، العفوية، البراءة، الرجولة، التضحية. فأم سعد هي الأرض ذاتها التي أنبتت كل هذه المعاني الطيبة.. انها الوطن في كل حقائقه، وأساطيره..*

نص مزيج من يوميات حياة المخيم.. ونهوض روح المقاومة والثورة في ناسه" (48)

هذه الأرض التي التحم بها الانسان الفلسطيني وتقمصها في "العاشق"، "أم سعد" تطل في "برقوق نيسان" وقد تقمصته هي بدورها، مشكلة بذلك ذروة الالتحام بينه وبينها، ومعبرة عن عمق تلك العلاقة العقلية، العاطفية التضالية التي تربط كلا منهما بالآخر.

لقد بدا كنفاني في "برقوق نيسان" عاشقا من نوع خاص "*عشقه للأرض يدفعها الى الامتداد داخل لغته امتدادا صاخبا، والرصاص ينبت زهرا على جسدها والبرقوق يصبح دماء المقاتلين*" (49)

نقرأ في مطلع الرواية : "*عندما جاء نيسان أخذت الأرض تتضرج بزهر البرقوق الأحمر، وكأنها بدن رجل شاسع. مثقب بالرصاص. هكذا مات قاسم قبل سنة، وقد دفن حيث لايعرف أحد. دون اسم*" (50)

الأرض - اذا - "*لاتحتوي الشهيد في أعماقها فحسب، ولكن شكلها الخارجي يتجلى على هيئته*" (51). هكذا بدت الأرض في عيني العجوز، والد الشهيد، عندما كان "*منشغلا بتلك الصور الغريبة التي اقتحمته كأنها قذفت على رأسه بحجر: بدن الأرض مثل بدن رجل مثقب بالرصاص... ولاريب أن قاسم بدا كذلك بعد هنيهات من سقوطه*" (52)

ومثلما تحمل اطلالة الربيع معها الخصب والحياة والتجدد للأرض، فان دم الشهيد يبشر بميلاد فجر جديد، يؤذن بحياة حرة كريمة. واذا كانت دورة الحياة لاتكتمل إلا من خلال القطبين: السالب والموجب، فان حرية الانسان وسعادته وكرامته لاتتحقق أو تكتمل، الا اذا سبقتها مراحل مضيئة من الكفاح والألم والبذل. ومثلما أن فرح الولادة لايتم الا مع الألم، كذلك فان النصر لايكون الا مع الشهادة، وبذل الدماء من أجل الانسان، وتحقيق حريته بمفهومها الشامل.

This essay studies the essence of the close emmotional relation which connects the Palestinion man with his land. It talks about variable types of lovers who do not get bored of their love to land. It observes the development of thir relation and enlightens its specifications in Kanafani's novels according to the developements of political, social and historical circumistances which the struggle of the Palestinian people passed. It explains the change caused by htis relation in Palastinian reality and the effect left on the developement of the case at different stages, starting from the stage of quietness, inability and idlness, passing the stage of revival and insurgency, ending with the rise of the revolution and what follows.

آ- المصادر والمراجع:

1 حسن، عبد الكريم: قضية الأرض في شعر محمود درويش، دمشق ط1 /1975.

2 خوري، الياس: الذاكرة المفقودة، دراسات نقدية، مؤسسة الأبحاث العربية، بيروت ط1 /1982.

3 زين الدين، أمل وجوزيف باسيل: تطور الوعي في نماذج قصصية فلسطينية، دار الحداثة بيروت، ط1 /1980.

4 سويدان، سامي: أبحاث في النص الروائي، مؤسسة الأبحاث العربية، بيروت ط1 /1986.

5 عاشور، د. رضوى: الطريق الى الخيمة الأخرى، دراسة في أعماق غسان كنفاني. دار الآداب بيروت ط2 /1981.

6 كنفاني، غسان: الآثار الكاملة، المجلد الأول. مؤسسة الأبحاث العربية، بيروت ط3 /1986.

7 وادي، فاروق: ثلاث علامات في الرواية الفلسطينية. المؤسسة العربية للدراسات بيروت ط1 /1981.

8 ياغي، د.عبد الرحمن: مع كنفاني في حياته وقصصه وروياته. عمان - الاردن ط2 /1987.

ب- الدوريات:

- دراج، د.فيصل:"العاشق واشكالية العلاقة المطلقة" الهدف، العدد968 ، عام 1989 .
- عيد، عبد الرزاق: "زمن المأساة ومأساة الزمن" الهدف، العدد968 ، عام 1989 .
- النقيب، فضل: "عالم غسان كنفاني" شؤون فلسطينية، العدد 13 ، عام 1972 .

الهوامش

(1) من رثاء محمود درويش لغسان كنفاني، في كتابه "وداعا أيتها الحرب، وداعا أيها السلام" نقلا عن كتاب الدكتور عبد الرحمن ياغي "مع غسان كنفاني في حياته وقصصه وروايته "عمان – الاردن / ط2 / 1987 . ص17 .

(2) كنفاني، غسان: الآثار الكاملة – المجلد الأول. مؤسسة الأبحاث العربية. بيروت ط3 /1986. ص37 .

(3) و (4) المصدر نفسه: ص50 .

(5) انظر: سويدان، سامي: أبحاث في النص الروائي، مؤسسة الأبحاث العربي، بيروت ط1 /1986. ص69 .

(6) و (7) المرجع نفسه: ص69 .

(8) كنفاني، غسان: الآثار الكاملة. مج1 /130 .

(9) ياغي، عبد الرحمن: مع غسان كنفاني في حياته وقصصه وروايته. ص97 .

(10) كنفاني، غسان: الآثار الكاملة. مج1 /168/ .

(11) المصدر نفسه: ص169 .

(12) المصدر نفسه: مج1 /196/ .

(13) ياغي، عبد الرحمن: مع غسان كنفاني ...ص96 .

* تتحدث الصحراء عن وقفة حامد، فتقول: "هذه المرة بدت وقفته حازمة ونهائية، وخيل الي أن قدميه قد غرستا في صدري كجذعي شجرة لاتقتلع" – الآثار الكاملةمج1 /195/ .

(14) كنفاني، غسان: الآثار الكاملة. مج1 /478/ .

(15) المصدر نفسه: ص180 .

(16) المصدر نفسه: ص205 .

(17) دراج، فيصل: "العاشق واشكالية العلاقة المطلقة" الهدف. ص43 ، ع 969، عام 1989 .

(18) المرجع نفسه: ص40 .

(19) كنفاني، غسان: الآثار الكاملة. مج1 /439/ .

– ص 117 .

(20) وادي، فــاروق: ثــلاث علامــات فـــي الرواية الفلسطينية، المؤسسة العربيــة للدراسات، بيروت ط1 /1981 . ص/68 – 69 /

(21) دراج، فيصــل: "العاشـــق واشـــكالية العلاقة المطلقة" ص/ 41 – 42 /

(22) كنفاني، غسان: الآثار الكاملــة، مــج1 /433 /.

(23) كنفاني، غسان: الآثار الكاملــة. مــج1 /444 /.

(24) وادي، فــاروق: ثــلاث علامـــات... ص89 .

(25) كنفاني، غسان: الآثار الكاملــة. مــج1 /449 /.

(26) وادي، فــاروق: ثــلاث علامــات فـــي الرواية الفلسطينية. ص54 .

(27) كنفاني، غسان: الآثار الكاملــة. مــج1 /446 – 447 /.

(28) عاشور، رضوى: الطريق الى الخيمــة الأخرى، دار الآداب، بــيروت ط2 / 1981

(29) كنفاني، غسان: الآثار الكاملــة. مــج1 /259 /.

(30) وادي، فــاروق: ثــلاث علامــات فـــي الرواية الفلسطينية. ص /65 .

(31) كنفاني، غسان: الآثار الكاملــة. مــج1 /250 .

(32) المصدر نفسه: ص336 .

(33) وادي، فــاروق: ثــلاث علامــات فـــي الرواية الفلسطينية. ص87 .

(34) كنفاني، غسان: الآثار الكاملــة. مــج1 /271 .

(35) المصدر نفسه: ص334 .

(36) المصدر نفسه: ص263 .

(37) زيـن الديـن، امـل، وجوزيـف باسـيل: تطــور الوعـــي فـــي نمـــاذج قصصيـــة فلسطينية – دار الحداثــة، بــيروت ط1 /1980 ص145 .

(38) عاشور، رضوى: الطريق الى الخيمــة

الأخرى. ص162 .

(39) و (40) المرجع نفسه: ص126 .

(41) النقيب، فضل: "عالم غسان كنفاني" شؤون فلسطينية، ص202 ، العدد13 ، عام1972 .

(42) و (43) كنفاني، غسان: الآثار الكاملة مج1 /250 – 269 /.

(44) المصدر نفسه: ص270 .

(45) المصدر نفسه: ص271 .

(46) حسن، عبد الكريم: قضية الأرض في شعر محمود درويش. دمشق ط1 /1975 .ص83.

(47) المرجع نفسه: ص83 .

(48) عيد، عبد الرزاق: "زمن المأساة، ومأساة الزمن" الهدف، ص36 ، ع968 ، عام 1989 .

(49) خوري، الياس: الذاكرة المفقودة، دراسات نقدية، مؤسسة الأبحاث العربية، بيروت ط1 . 1982 ، ص109.

(50) كنفاني، غسان: الآثار الكاملة. مج1 /581 – 582 /

(51) وادي، فاروق: ثلاث علامات في الرواية الفلسطينية. ص/55 /.

(52) كنفاني، غسان: الآثار الكاملة. مج1 /585/ ./

يتناول هذا البحث اثنين من الموضوعات: يساهم الموضوع الأول في تسليط الضوء على الأسطورة البابلية كواحدة من أقدم مصادر الفكر الإنساني المتحضر خارج إطار الغرب الصناعي. أما الموضوع الثاني فيستقصي مدى التأثير الذي يظهر من خلال شمولية هذه التجربة الثقافية والإنسانية وأثرها في الفكر الغربي المتمثل بشكل رئيسي بالأسطورة الإغريقية القديمة.

يهدف هذا البحث -من خلال التركيز على الأبعاد الفلسفية والثقافية لملحمة التكوين البابلية "الانيوماليش" وملحمة جلجامش كأسطورتين شرق أوسطيتين- إلى إبراز تأثير الأسطورة البابلية على مثيلتها الإغريقية، وبالتالي، على فلسفة وأدب الغرب الحديث.